ذكرى المولد النبي

من مشاهد عكاظ المؤثرة [1]

للأستاذ سعيد الأفغاني

استيقظت مكة ذات صباح ، بعد عام الفيل بأربعين ، على جرس حلو ساحر ، يرسله محمد الأمين داعيا قومه إلى الله وحده ، وأن ينبذوا ما هم فيه من عبادة أصنام ووأد بنات وقتل أولاد ، وأن يقبلوا على ما يشبع فيهم المحبة والسعادة ويوطد لهم المجد والعزة فى العالمين .

استمع مشركو مكة إلى هذا الرجل الذى كان حبيبا إلى قلوبهم ، عظيم المنزلة فى صدورهم ، مضرب المثل بينهم فى علو الخلق وطهارة السيرة وصفاء السريرة ، فنظر بعض إلى بعض مكبرين ما أتى به ابن عبد المطلب سيد فتيان هاشم ورجل مكة المنتظر .

ونزت فى تلك الرءوس حمية جاهلية استعصى قيادها على البيان الساحر والعقل الوافر والحرص المخلص ، فعظم عليها أن تترك ما ألفت ، وتألبت قوى أهل مكة جيوشاً متضافرة تكيد لهذا الداعى إلى الخير ولأولئك القانتين المخبتين من الضعفاء والنساء والصبيان ، الذين ملكت عليهم الدعوة الجديدة شعورهم وتغلغل صوت الإله فى أعماق نفوسهم فصفاها وأخلصها ، ليكون منها الهدف الأول الذى يصمد فى سبيل العقيدة الحق للأذى والتشريد والتجويع والتعذيب بصبر عجيب وإيمان صليب واغتباط متزايد ، كأنما يجدون فى هذه الآلام نعيما ولذائذ . فكانت مصابرتهم وثباتهم خير ما ضمن نجاح الدعوة وتقاطر الناس عليها فيما بعد .

إلا أن الأذية عظمت ، وأبى المشركون إلا إصراراً واستكباراً وصداً عن سبيل الله من آمن به ، وكادت تتسرب شوائب من يأس إلى بعض تلك النفوس العظيمة ، لولا بارقة أمل لاحت لهم فى قصد قبائل العرب بالمواسم فى عكاظ ومجنة وذى المجاز .

* * *

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين فى عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدن المواسم ولياتين فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، وكل جماعة فى حيهم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد .

قام فى عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا »

ويتبعه رجل له غديرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول :

« يا أيها الناس ، إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . »

فعرف الناس أن هذا (الصاد عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب ابن عبد المطلب ، يكذبه كلما قال كلمة الحق .

عاود الرسول الدعوة مراراً فلم يجب ولم ييأس ، ورجا أن يجد فيهم الحامى والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحى فى موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شىء : من رضى الذى أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ؛ إنما أريد أن تحوزونى مما يراد بى من القتل ، فتحوزونى حتى أبلغ رسالات ربى ويقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء [2] . »

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضى كأن الأمر لا يهمه . منهم من لا ينكر ما يسمع ، ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .

كان هذا دأبه أبداً ، يوافى به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، أما آن لك أن تيأس ؟ ! » من طول ما يعرض نفسه عليهم .

* * *

انتهى رسول الله فى تطوافه على القبائل فى عكاظ ، إلى بنى محارب ابن خصفة ، فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومائة سنة ، فكلمه ودعاه إلى الاسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ؛ فقال الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بذنبك . والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأغبن عنا نفسك . » وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربى .

ثم وقف أبو لهب على المحاربى فقال .

ولو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذى هو عليه ، إنه صابىء كذاب . »

---

(١) من كتابنا (أسواق العرب) الذى تصدره فى هذه الأيام : المكتبة الهاشمية بدمشق ، بتصرف قليل

(٢) دلائل النبوة ص ١٥٢

قال المحاربى : « أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ولحتك . »
ثم قال : « لعل به يا أبا عتبة لمماً ، فإن معنا رجلا من الحى يهتدى لعلاجه . » فلم يرجع أبو لهب بشىء (١) .

روى عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه قالوا :
أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال :
ـ من القوم ؟
قلنا : ـ من بنى عامر بن صعصعة .
ـ من أى بنى عامر ؟
ـ بنو كعب بن ربيعة .
ـ كيف المنعة فيكم ؟
ـ لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا .
فقال : إنى رسول الله ، فإن أتيتكم تمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى ولم أكره أحداً منكم على شىء ؟
قالوا : ـ ومن أى قريش أنت ؟
ـ من بنى عبد المطلب .
ـ فأين أنت من بنى عبد مناف ؟
هم أول من كذبنى وطرد نى
قالوا : ـ ولكنا لانطردك ولا نؤمن بك ، ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .
فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيرى فقال :
ـ من هذا الذى أراه عندكم أنكره ؟
قالوا : ـ هذا محمد بن عبد الله القرشى .
ـ مالكم وله ؟
ـ زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .
ـ فماذا رددتم عليه ؟
ـ قلنا فى الرحب والسعة ، تخرجك إلى بلادنا ونمتعك مما نمنع به أنفسنا .
قال بجرة : ـ ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشىء أشر من شىء ترجعون به . بدأتم لتنابذ كم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة . قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به . تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأى رأيتم .
ثم أقبل على رسول الله فقال : « تم الحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك »

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته . وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتى أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت : « يا آل عامر ولا عامر لى ! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ؟ »

فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل رجل منهم رجلا فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ، ثم علقوا وجوههم لطما ، فقال رسول الله :
« اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء . »

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان فى الموسم فقالوا :
« جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا . »

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :
« يا بنى عامر : هل لها من تلاف ؟ هل لذناباها من تطلب ؟ فوالذى نفس فلان بيده ، ما قولها إسماعيلى قط . ألا إنها الحق ؛ فأين كان رأيكم ؟ (١) »

* * *

هذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو المجاز ، التى كانت تقوم فى أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب ، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء والمفاخرة والانشاد . مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم . وابتلعت تلك الأصوات بضجيجها وما كانت تعج به من حوادث ، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها فى ذلك الصخب والزحام ؛ فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ، ثم أعلن فى الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافى فيهن المواسم كل عام ، « يتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون

(١) المصدر نفسه ص ١٠١

(١) دلائل النبوة ص ١٠٠

عليه أقبح الرد ، ويؤذونه ويقولون له : قومك أعلم بك (١) ،

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج موزع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لإجارة أو حمالة ، وداع إلى عصبية ، وآمر بمنكر . . . ، فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط ، ولا سمع بمثله : رجلا كهلا وضيئاً عليه سمات الوقار والرحمة والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء بنو الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة . . . الخ

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله وفعل الخير فيتجهم له هذا ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ، ويحقره آخر . . فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤنسه مالق ، ولا يكفه ما أوذى ، فيمضى متئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر : يعرض عليهم نفسه ويقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى . فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار .

* * *

هذا ما حفظته لنا كتب السيرة من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد تردد فى أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدف عنه الناس وازوروا فى أسواق الجاهلية ، إنه ملأ فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الخافقين بآثاره التى بثها فى العالمين رحمة وعدلا وعلماً ، وإنسانية وسعادة ومثلا عليا .

وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، فى آسيا وأوروبا وأمريكا . صد عنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين ، من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسى ومفكر . . ممن يستضيء بعلمهم وفكرهم الملايين من الخلق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحفظ هذا الدرس ؛ فان الحق مهما بدا ضعيفا وبدا خصيمه الباطل قويا صائلا ، لابد أنه ظافر فى النهاية عليه . فليس فى الدنيا شيء يصمد للحق ، لا الجيوش ولا الأساطيل ، ولا النار ولا الحديد ، لا شيء له العقبى إلا الحق . وأهون بعد ذلك بالمعاهدات والمراسيم وصكوك الانتدابات وسائر القصاصات من أوراق الزور . كل أولئك يضمحل ويذوب متى سلط عليه الإخلاص والثبات وصلابة العقيدة والايمان . وما نرى فى أيامنا هذه من استضعاف الباطل المعتز بالصولة ، لأناس وقفوا يدعون النضال فى سبيل الحق ، واستخذاء هؤلاء له ، وطواعيتهم فى يديه ، ناشىء من فقدان الاخلاص والعقيدة فيما يضمرون . ولعل كثيراً منهم يظهر دفاعا عن حق ، ويبطن سعياً إلى منصب أو استدراراً لمال . وما أسرع ما ينزع الزمان الأثواب المزورة عن هذا الفريق فيظهر للناس ما يخفون .

ولنعلم بعد أن الياس لا ينبغى أن يجد سبيلا إلى قلب المؤمن ، وأنه : « لا ييأس من روح الله إلى القوم الكافرون »

« دمشق » سعيد الأفغانى

(١) شرح المواهب ١ : ٢٠٩

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس

كتب الهدايا للمشتركين

نشرنا فى غلاف العدد الماضى قائمة بالكتب التى يختار من بينها المشترك الذى أدى اشتراكه على مقتضى الشروط المعلنة كتاباً يرسل إليه على حسابه . فنرجو الرجوع إلى ذلك العدد .